تمهيـــــــد

الحياة السياسية في القرن الرابع الهجرى

يكاد عصر الراضى بالله أبى العباس أحمد بن المقتدر بن المعتضد أن يكون عصر ضعف للخلافة العباسية بعامة. فقد بويع له سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة من الهجرة. وبدأت عقارب الضعف تدب فى أوصال الدولة، فاستقلت الأطراف، وعظم أمر الدول فى فارس وخراسان وما وراء النهر." وفى أيامه سنة ٣٢٢هـ عظم أمر مرداويج بأصفهان، وهو رجل خرج بتلك النواحى، وقيل: إنه يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس، ويبطل دولة العرب، فورد الخبر فى أيام الراضى بأن غلمان مرداويج اتفقوا عليه فقتلوه. وفى أيام الراضى ارتفع أمر أبى الحسن على ابن بويه. وفى أيام الراضى كذلك ضعف أمر الخلافة العباسية، فكانت فارس فى يد على ابن بويه، والرى وأصفهان والجبل فى يد أخيه الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر فى أيدى بنى حمدان، ومصر والشام فى يد ابن طغج، ثم فى أيدى الفاطميين، والأندلس فى يد عبد الرحمن بن محمد الأموى، وخراسان والبلاد الشرقية فى يد نصر بن احمد السامانى". (١)

وأصدق رأى يرى فى هذا العصر ما قاله المسعودى أن "كلا قد غلب على صقعه يحامى عنه، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العمارة، وانقطاع السبل، وخراب كثير من البلاد، وذهاب الأطراف، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه". (٢)

---

(١) الفخرى ص٢٤٧.

(٢) التنبيه والاشراف ـ المسعودى ص٣٤٧.

ولقد اهتمنا بإلقاء الضوء على الناحية السياسية فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، واهتمنا كذلك بالدول التى عاصرها بديع الزمان ، وسيطرت على النصف الشرقى للعالم العربى . وكانت له معها علاقة أو عاصر أحداثها . وأظهر هذه الدول .. الغزنوية والزيارية والسامانية وإمارة سجستان التابعة لخلف بن احمد فى ذلك الوقت والدولة البويهية .

الدولة الغزنوية :

ملكت الدولة الغزنوية فى النصف الثانى من القرن الرابع ملك السامانيين ويرجع تاريخ تأسيسها إلى أحد الأمراء الأتراك المسمى ألبتكين الذى كان له منزلة كبيرة عند السامانيين فأسندوا إليه ولاية هراة فى خراسان (١). ولكنه حين أقصى عن منصبه اتجه إلى غزنة وحل محل أبيه فى حكمها بعد وفاته سنة ٣٥٢هـ (واستطاع أن يناوئ منصور الأول بن نوح السامانى (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) ولكنه مات بعد سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع رقعة البلاد التى استولى عليها ، كما لم يتمكن ابنه اسحق من مد نفوذ الغزنويين) (٢) ولكن اسحق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم فاجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم ، ويجمع كلمتهم ، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين ، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته ، وكمال الخير فيه ، فقدموه عليهم ، وولوه أمرهم ، وحلفوا له ، وأعلاوه ، فولوهم ، وأحسن السيرة فيهم ، وساس أمورهم سياسة حسنة ، وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال " . (٣)

---

(١) خراسان اقليم يشمل نيسابور وبلخ وبست وسجستان وهراة وقوهستان ومرو وسرخس
(٢) تاريخ الإسلام السياسى جـ ٣ ص ١٦٤ .
(٣) الكامل ـ ابن الاثير حوادث سنة ٣٦٦ هـ جـ ٨ ص ٦٨٤ ـ بيروت .

وقد بدأ سبكتكين سلسلة فتوحاته العظيمة في بلاد الهند ، ولكن الموت عاجله سنة ٣٨٧ هـ وكان ابنه محمود في ذلك الوقت على خراسان . وكان أخوه اسماعيل على غزنة . وابتدأت الحرب بينهما إلى أن استقر ملك الغزنويين في يد محمود. وقد بدأ يتوسع في مملكته الصغيرة التي ورثها عن أبيه سبكتكين بعد أن حاقت الهزيمة بالبيت السامانى . وغزا محمود الهند اثنتا عشرة مرة منفصلة (١٠٠١ ـ ١٠٢٤م) وكان كثيرا ما يحطم الأصنام . وقد ضم اليه البنجاب والغور (١٠١٢ م) وماوراء النهر (١٠١٦ م) ووصل ضرباته لآل بويه حتى استولى على أصفهان . (١)

ونستطيع أن نقول إن حياة محمود الغزنوى كانت حروبا متصلة لفتح الهند أو بخارى وماوراء النهر . بل إنه حارب خلف بن أحمد صاحب سجستان واستولى عليها (سنة ٣٩٣ هـ) ولكنها لم تلبث أن خرجت عليه فأخضعها وأقطعها أخاه نصرا (٢) سنة (٣٩٠ ـ ٣٩٣ هـ)

وقد اتصل بديع الزمان بوزير الغزنويين الشيخ أبى العباس الفضل بن أحمد الإسفرائينى وهو أول من استوزر لأبى الفتح القاسم محمود بن سبكتكين . أرسل إليه تسع رسالات يكدى فيها ، ويفتقر إليه افتقار الجسد إلى الحياة والحوت إلى الفرات . ويبدو أنه كتبها أو كتب إحداها على كبر وقد شارف الأربعين (ولقد نظرت في المرآة فوجدت الشيب يتلهب وينهب ، والشباب يتأهب ويذهب) . (٣)

---

(١) A literary history of Persia - Broune P.: 376.

(٢) تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ١٦٧ .

(٣) الرسائل ص ١٢ .

وقد سجل فى أكثر رسائله انتصارات محمود الغزنى • يقول فى هزيمة السامانية بباب مرخص (ماأظن أطال الله بقاء الشيخ السيد آل سامان إلا مدعين على الله مقاطعة أرضه ، ومساقات ثماره • ياهؤلاء لاتكابروا الله فى بلده • ولاتراودوا الله تعالى غير مراده • إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، وما أرى آل سيمجور إلا معتقدين أنهم يأخذون خراسان قهرا • كأنما كانت لأمهم مهرا • فلهم من حولها محيط ، والله من ورائهم محيط • وبلغنى أن صاحبهم أسر ، فان كان مابلغنى صحيحا فمرحبا بالأسر ، ولا لعا للعاثر • حتام كفر الكافر وغدر الغادر ، وأبو الحسين بن كثير (١) خذله الله لايكاد يرى الخير من ابن واحد أفرنجوه من ابن كثير) • (٢)

كما كتب اليه كتابا فى فتح مرو وبهاضية (٣) وحين بدأ رحيله الى غزنة وهراة • مدح البديع محمودا الغزنى بقصيدته التى يقول له فيها :

تعالى الله ماشاء ∴ وزاد الله ايمانى
أأفريدون فى التاج ∴ أم الاسكندر الثانى
أظلت شمس محمود ∴ على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام ∴ عبيدا لابن خاقان
أمن واسطة الهند ∴ إلى أقصى خُراسان (٤)

---

(١) أبو الحسين العتبى من جملة وزراء الأمير نوح السامانى •
(٢) الوسائل ص ١٧ •
(٣) مدينة من أعمال الهند وراء الملتان ، انظر الوسائل من ص ٨ ــ ٢٨ •
(٤) الديوان ص ٧٨ ــ ٧٩ •

وهذه القصيدة خلاصة تبين القوى التى كانت تعمل فى المجتمع العربى عملها . فلقد كان التنازع من قديم بين العرب والفرس والترك ، وحين ضعف شأن العرب أصبح التنازع بين الفرس والترك الذى كان له مظهر المعارك وقيام الدول. فقد قامت الدولة الغزنية وهى دولة تركية فى الأصل سنية المذهب تريد تقوية الخلافة العباسى فى مواجهة دولة بنى بويه صاحبة المذهب الشيعى .

الدولة الزيارية

يعتبر مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية فى اقليم طبرستان . ففى سنة ٣٢٢ هـ عظم أمر مرداويج فاستولى على قزوين والرى وأصفهان ، كما أخضع جرجان وهمذان . وبلغت جيوشه نواحى حلوان . وهو فى الأصل رجل من الفرس كان يتولى أعمال أصفهان خرج بتلك النواحى . وقد سبق أن قلنا إنه يريد الاستيلاء على بغداد وإرجاع المجد الفارسى ولكنه قتل . وخلفه أخوه وشمكير بن زيار " على أن نفوذه سرعان ماضعف وانتزع منه ركن الدولة بن بويه بلاد الرى سنة ٣٣٠ هـ ، كما انتزع أبو على بن المظفر بن محتاج والى نصر بن احمد السامانى على بلاد خراسان بلاد طبرستان وجرجان ، وأرغمه على المسير الى بلاد الجبل حيث أذعن لطاعة نصر بن أحمد السامانى ثم لابنه نوح بن نصر " . (١)

ولقد قام النزاع بين مرداويج وأحد الأمراء الديلميين (ماكان بن كالى) وحين رأى أولاد بويه : على والحسن وأحمد رجحان كفة مرداويج انحازوا إليه

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٦٤ .

" فولى عليها بلاد الكرج إلا أنه لم يلبث أن خشى خطرهم فأعاد إلى الخليفة مدينة أصبهان التى كان قد فتحها باسمه أحمد بن بويه . وجلب على نفسه بذلك عداوة البويهيين " (١) وقد قوى أمر على فى بلاد الكرج وظل البويهيون ومرداويج يتنازعان أصبهان وقم والرى حتى استولى عليها الحسن بن بويه بعد حروب دامت طويلا . وفى سنة ٣٧١ هـ " قامت الحرب بين الأمير نوح بن منصور السامانى وبين عضد الدولة بن بويه الذى استولى على جرجان وطبرستان من قابوس بن وشمكير نائب السامانيين على هذه البلاد " . (٢)

وقد عرف عن قابوس القتل وسفك الدماء " وخاصة فى حاشيته وجلوده ، فكان لا يسمع شكوى فى أحد منهم الا قتله . فملوه وعزلوه " (٣) ثم قتل فى سنة (١٠١٢م - ٤٠٣ هـ) على يد جماعة من الأشراف الثائرين " (٤)

وقد حاول بديع الزمان أن يتصل بهذا الأمير الأديب حين خروجه من أصبهان الى طبرستان ، ولكنه كان قد هرب منها أمام جيوش بنى بويه التى اكتسحت ملكه وملك السامانيين . وقد ظهرت تلك المحاولة فى رسالته الى شمس المعالى يقول: " وقد صرت أظل الله بقاء الأمير بين أنياب النوائب ، وتجشمت هول الموارد وكبت أكتاف المكاره ، وضمت أخشن العوائق ، ومسحت أطراف المراحل حتى حضرته المهية أو كدت ، ولفت الأمنية أو زدت " . (٥)

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ٩٩ ، دائرة المعارف الاسلامية - مادة "بويه".
(٢) المرجع السابق حـ ٣ ص ١٦٠ .
(٣) ظهر الاسلام حـ ١ ص ٢٥٧ .
(٤) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى - براون ص ١١٨ .
(٥) الرسائل ص ١٣٠ .

الدولة السامانيـــة :

وأسس هذه الدولة سامان من أشراف بلخ ، أنشأ أعقابه دولة عظيمة فـــي خراسان وتركستان (١). وقد عاش بديع الزمان أحداث هذه الدولة في عهـــد نوح الثاني بن منصور السامانى (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ) وقد وزر له أبو الحسين العتبى، الذى جاء ذكره في رسائل البديع ، وقد امتد نفوذ السامانيين في خراســـان وماوراء النهر بين (٢٦١هـ ـ ٤٤٧هـ) . واستمرت الحروب في عهد نوح بين السامانيين والبويهيين وبين جيوش نوح وسبكتكين والقواد الثائرين عليه مما كـــان سببا في إضعاف عزيمة الدولة وزوالها . " وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولـــة السامانية للزوال . ففي سنة ٣٨٣هـ ثار عليه اثنان من أكبر قواد السامانيين هما : أبو الحسن بن سيمجور (٢) ، وفائق الخاصة غلام نوح بن نصر ، واتصلا بشهـــاب الدين هرون بن سليمان إيلك المعروف بخراخان التركى ، وكانت تمتد بلاده مـــن حدود الدولة السامانية شرقا حتى تتاخم حدود الصين ، وأطمعاه في الاستيلاء على بلاد ماوراء النهر " (٣). وبذلك استولى بخراخان على بخارى ولم يرجع إليهـــا نوح إلا بعد وفاة بخراخان وانتقاله عنها نحو بلاد الترك . " فلما فارقها ثـــار أهلها بساقة عسكره ففتكوا بهم وغنموا أموالهم " . (٤)

وقد استمان نوح بن منصور كذلك بسبكتكين واستمان الأمراء السامانيـــون ببني بويه وظلت الحرب سجالا حتى انتصروا . وقد كانت أيامه مشحونة بالثـــورات

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ زيدان حـ ٣ ص ٢٢٦ .
(٢) الوسائل ص ١٧ .
(٣) تاريخ الاسلام السياسى حـ ٣ ص ١٦٠ .
(٤) الكامل ـ ابن الأثير حـ ٩ ص ١٠٠ ـ بيروت .

والحروب . وبموته اختل ملك آل سامـان .

استغل محمود بن سبكتكين اضطراب الأمور في بخارى فأعد جيشه واستولى على نيسابور وبخارى وخطب فيها للخليفة القادر بالله . على أن بخارى ظلت كعبة العلم والمحتاج ، ومشعر الكرم في عهد السامانيين للأدبين العربي والفارسي على السـواء .

امـارة سجسـتان :

في سجستان أمراء من نسل يعقوب بن الليث الصفار ومنهم الأمير خلف بن أحمد . وفي حوادث سنة ٣٥٤ هـ " نجد أن أبا احمد خلف بن أبي جعفر بـن بانو وصل الى الخليفة عن طريق معز الدولة ، فقلده سجستان وخلع عليه ، وعقد له لواء " (١). وفي خلافة القادر بالله وفي سنة ٣٨١ هـ " أنفذ خلف بن احمـد صاحب سجستان وهو ابن بانو بنت عمرو بن الليث الصفار ابنه عمرا الى كرمـان فملكها " . (٢)

وقد انتقضت سجستان على صاحبها أكثر من مرة ، ولكن مساعدة السامانيين قد اعادته الى مكانه . ونتج عن سوء العلاقة بينه وبين السامانيين كثير من الحروب بينهما . " ففي عهد منصور بن نوح السامانى سنة ٣٥٠ هـ شق أهل سجستـان عصا الطاعة على أميرهم خلف بن احمد ، وولوا مكانه رجلا من أصحابه يدعـى

---

(١) تجارب الامم ـ مسكويه ج ٢ ص ٢٠٩ .
(٢) ابن الأثير حـ ٩ ص ٨٢ ـ بيروت .

طاهر بن الحسين ، فاستنجد خلف بالأمير منصور بن نوح فأمده بجيش استرد به هذه البلاد ، ولكنه لم يلبث أن طرد عنها ، ثم استردها بمعونة السامانيين . بيد أن خلف بن أحمد لم يلبث أن ساءت علاقته بالسامانيين ، فقطع ما كان يحمله الى بخارى من الخلع والخدم والأموال التى استقرت القاعدة عليها ، فبعث منصور ابن نوح الجيوش لمحاربة خلف بسجستان . واستمرت الحروب سبع سنين انتهت بعقد الصلح بينهما ، واعادة الخطبة لمنصور بن نوح " . (١)

وفى سنة ٣٩٠ هـ سار يمين الدولة الى سجستان وصاحبها خلف بن احمد فحصره بها "وكان سبب ذلك أن يمين الدولة لما اشتغل بالحروب سيّر خلف بن أحمد ابنه طاهرا الى قهستان فملكها ، ثم سار منها الى بوشنج فملكها ، وكانت هى وهراة لعم يمين الدولة" (٢) وقامت الحرب بين طاهر بن خلف وعم يمين الدولة الذى قتل فيها الأخير . فلما سمع يمين الدولة بمقتل عمه تحصن خلف بن أحمد بحصن أصبهذ ، وبذل من الأموال الجليلة حتى يفك أسره . وفى سنة ٩٣ ٣هـ ملك محمود بن سبكتكين سجستان وانتزعها من يد خلف بن احمد .

وقد اتصل بديع الزمان بهذه الإمارة فى حدود سنة ٣٨٣هـ ، ورفع من ذكر مؤسسها بمقاماته الست التى مدحه فيها ، وهى المقامة : الناجمية (ص١٩٩) والخلفية (ص ٢٠٤) والنيسابورية (ص٢٠٧) والملوكية (ص ٢٣٤) والسارية (ص٢٣٩)

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى حـ ٣ ص١٥٨ .

(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص١٥٩ ـ بيروت .

والتتميمة (ص ٢١١) (١). وقد صدق حين قال البديع له: "أرى أنه سعد منى بأكثر مما سعدت منه" (٢)

الدولة البويهية:

كان علي بن بويه وإخوته الحسن وأحمد جنودا في جيش ماكان بن كالى، فلما قام النزاع بينه وبين مرداويج بن زيار ورجحت كفة مرداويج انحازوا إليه وعملا نجمهم. فتولى علي بلاد الكرج من قبل مرداويج. "ثم سأل علي بن بويه الخليفة الراضي أن يقاطعه على أعمال فارس في كل سنة بعد النفقات والاستظهارات بما يحمله الى دار الخلافة، وهو ثمانمائة ألف ألف درهم، على أن يبعث الخليفة اليه بخلعة السلطنة والمنشور، فبعث الراضي إليه بذلك على يد رسول أرسله إليه، وأوصاه ألا يسلم الخلعة والمنشور إليه حتى يقبض منه المال. فلما وصل الرسول إليه غالطه، وأخذ الخلعة منه فلبسها، والمنشور فقرأه على رؤوس الأشهاد، وقويت نفسه بذلك، ووعد الرسول بالمال ودافعه مدة، فمات الرسول عنده. وتقلبت الأحوال بالخليفة فكسر المال واستبد بالأمر. وكان عماد الدولة أول ملوكهم" (٣). وبدأت فكرة الاستيلاء على العراق تختمر في ذهن علي فسير أخاه أحمد الى الأهواز وواسط ثم دخل بنو بويه بغداد في خلافة المستكفي بالله (وخلع الخليفة على أحمد ولقبه معز الدولة (٣٣٤-٣٥٦هـ)، ولقب أخاه عليا عماد الدولة، ولقب أخاه الحسن ركن الدولة (٣٣٠-٣٣٦هـ). وأمر أن

---

(١) الترقيم حسب ورود، في مقامات البديع. بيروت ١٩٠٨.
(٢) الرسائل ص ٧٢.
(٣) الفخري ص ٢٤٦.

تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم".(١)

وقد امتلك عز الدولة بختيار العراق في سنة (٣٥٦ ـ ٣٦٧هـ) ونـــزل ركن الدولة عما بيد من أعمال (بلاد الجبل) (٢) لأولاده، فكان لمؤيد الدولـــة (٣٦٦ـ ٤٢٠هـ) الري وأصبهان، ولفخر الدولة همذان والدينور، ولمضـــد الدولة (٣٦٧ ـ ٣٧٢هـ) فارس وكرمان وأرجان.

وقد دب الخلاف بين أفراد هذه الأسرة الكبيرة مما نتج عنه حروب كثـــيرة قاسى منها المجتمع كله من فقر ومجاعات وموت زؤام وقيام كثير من أعمال التخريـــب. ويفصل ذلك كاتب مادة (بويه) في دائرة المعارف الاسلامية يقول: " ومع ذلـــك فسرطان مادب الخلاف بين أفراد هذه الأسرة. وتوفي عز الدولة عام (٣٥٦هـ ـ ٩٦٧م) فخلفه ولده عز الدولة بختيار في حكم كرمان وخوزستان والعراق. ولـــم يستطع عز الدولة أن يحفظ بالنظام والطاعة بين صفوف جنده الذين يتألف بعضهم من الديلم والبعض الاخر من الترك فطالب العون من ابن عمه عضد الدولة، فأعـــاد هذا الأمير الى نصابها، ولكنه أسر بختيار واستولى على أملاكه. وتدخل ركـــن الدولة للتوفيق بين بختيار وعضد الدولة فاستعاد بختيار أملاكه ودب الخلاف ثانية بين أفراد الأسرة البويهية بعد وفاة ركن الدولة عام (٣٦٦هـ ـ ٩٧٦م) اذ قسم هذا ملكه بين أبنائه الثلاثة فكان هذا التقسيم الذي كثيراً ما أنهت الأيـــام دوره شؤما على البويهيين أنفسهم. وكانت السلطة كلها بمقتضى هذا التقسيم فـــي يد عضد الدولة بينما أقيم مؤيد الدولة واليا على أصفهان وحكم الأخ الثالث فخـــر الدولة ماتبقى من بلاد الجبل، والتزم عضد الدولة جيوش بختيار، وأخضع العـــراق بأسره لسلطانه ثم استولى على أملاك أخيه فخر الدولة. وقد حاول فخر الدولـــة الاستقلال فهاجمه عضد الدولة واضطره إلى الفرار إلى خراسان. وتمكن عضد الدولة

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٥٠ حوادث سنة ٣٣٤ ـ بيروت.

(٢) بلاد الجبل: من اصبهان والري وهمذان والدينور وعراق العجم كله ـ النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٧ حوادث سنة ٣٦٦هـ.

بذلك من توحيد المملكة كلها تحت سلطانه . فبلغت الدولة البويهية في عهده أوج عظمتها . ودب النزاع بين أبنائه الثلاثة عقب وفاته عام (٣٧٢ هـ - ٩٨٣م) وتوفي مؤيد الدولة في العام التالي دون أن يعقب ولدا . وبينما كان القتال قائما بين أبناء عضد الدولة وهم : شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، فاستدعى أشراف البلد عمهم فخر الدولة من منفاه ونادوا به واليا على بلاد الجبل وطبرستان وجرجان . وانتهى القتال بين أبناء عضد الدولة في عام ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) بانتصار بهاء الدولة ". (١)

"استولى بنو بويه على السلطة فشاعت هيبة الخلفاء ففي سنة ٣٦٢ هـ "صادر السلطان بختيار المطيع ، فقال المطيع : أنا لهم لي غير الخطبة ، فإن أحببتم اعتزلت ، فشدد عليه حتى باع قماشه وحمل أربعمائة الف درهم ، وشاع في الألسنة أن الخليفة صودر ". (٢)

وفي سنة ٣٨١ هـ قبض على الطائع وسببه أنه حبس رجلا من خواص بهاء الدولة ، فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متقلدا سيفا فلما قرب بهاء الدولة قبّل الأرض وجلس على كرسي ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة ، فجذبوا الطائع من سريره وتكاثر عليه الديلم ، فلفوه في كساء وأصعد الى دار السلطنة ، وارتج البلد ، ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع ايمانا بخلع نفسه ، وأنه سلم الأمر الى القادر بالله ". (٣)

وكذلك كان من أثر بختيار (٣٥٦ - ٣٦٧ هـ) أن ساءت الحالة باهماله الأمور ، واقباله على الشهوات ، واستثقاله مباشرة التدبير حتى سقطت الهيبة ، وانبسطت العامة ، وأغار بعضها على بعض (٤). وقد استعان بعض أمراء بني بويه

---

(١) مادة بويه - سترشتين - دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) تاريخ الخلفاء - السيوطي - ص ٢٦٧ .
(٣) النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٢٧١ .
(٤) تاريخ الإسلام السياسي حـ ٣ ص ١٠٧ .

بالقرامطة ففى سنة ٣٦٦ هـ كان قدوم أبى بكر محمد بن على بن شاهويه صاحب القرامطة إلى الكوفة ممونقلصد الدولة (١)

وقد عاصر بديع الزمان أحداث ملوك بنى بويه فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى : عضد الدولة وبهاء الدولة وفخر الدولة ومجد الدولة أبو طالب رستم وشمس الدولة .

وهكذا رأينا أن بنى بويه شغلتهم حروبهم المتصلة مع الحمدانيين والسامانيين والزياريين ومن الترك والديلم ، ومن الديلم وأنفسهم ، حتى أضعفت قوتهم ، وحملتهم على الاهتمام بارضاء القواد عن ارضاء الشعوب التى وقعت تحت سيطرتهم ، فلم يهتموا بها أو بدين أو بخليفة ، وانما كان جل اهتمامهم جمع المال من كل وجه مما أدى الى تدهور الحياة الاجتماعية التى فصلناها فيما بعد .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٥ .

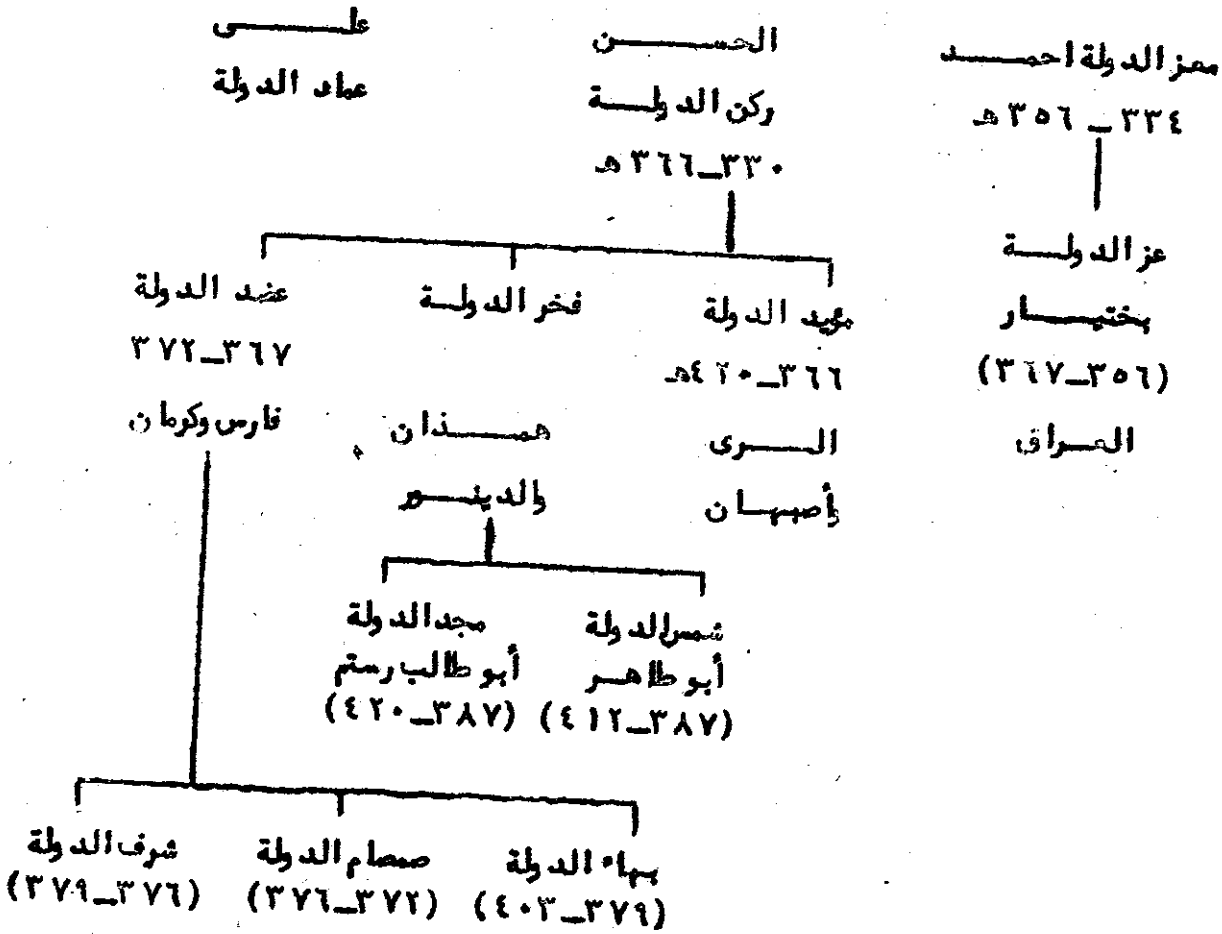

بنو بويه في فارس : علي بن بويه ـ عضد الدولة ـ بهاء الدولة ـ سلطان الدولة ـ شرف الدولة وصمصام الدولة.

بنو بويه في الري وهمذان وأصبهان : ركن الدولة ـ أولاد ركن الدولة.

الحياة العقلية فى القرن الرابع الهجرى :

نضجت الحياة العقلية فى القرن الرابع الهجرى نتيجة لما نقل من آداب الأمم الأخرى . فارتقت الفلسفة ، وأصبحت لها مجالس تعقد وآراء تناقش . وقد كان ابن سمدان وزير صمصام الدولة يعتنى بمجالسه التى كان يجمع فيها بين ابن زرعة النصرانى وأبى الوفاء المهندس وأبى حيان التوحيدى ، وكان هذا الأخير يحضر مجلس أستاذه أبى سليمان المنطقى " وكان مجلسه فى بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل ، ويدلى فيها كبار العلماء بآرائهم " (١) . ونمت الحركة العلمية والأدبية فى بلدان العالم العربى كله . وصاحب ذلك ارتقاء اللغة ، فألفت المعاجم وكتب اللغة على اختلافها . ولازلنا نسمع عن أبى سعيد السيرافى الموسوعى فى علوم القرآن والحديث واللغة والنحو والأدب . وقد دارت مناظرة بينه وبين متى بن يونس فى النحو والمنطق . كما عرف المجتمع التصوف الإسلامى ، ومن أشهر المتصوفين سهل بن عبد الله التسترى الذى تلمذ عليه أبو عبد الله الحلاّج ، وقد لقى الحلاج كبار الصوفية وخالطهم : لقى الجنيد والنورى وابن عطاء الى أن حكم عليه بالزندقة وقتل سنة ٣٠٩ هـ .

والحياة العقلية واضحة فى المقامة المارستانية حيث يبين فيها البديع عقائد المعتزلة ويرد على قوم يزعمون أن العقل قائد لهم على لسان مجنون لاعقل له يقول البديع : " إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمر بيد الله لا بيده ، وأنتم يامجوس

---

(١) ظهر الاسلام جـ ١ ص ٢٢٩ .

هذه الأمة تعيشون جبرا وتموتون صبرا . وتساقون إلى المقدور قهرا . ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . أفلا تنصفون؟ إن كان الأمر كما تصفون؟ وتقولون : خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون خالق الهلك هالك؟ أتعلمون يقينا أنكم أخبث من ابليس دينا ؟ قال : رب بما أغويتني . فأقر وأنكرتم ، وآمن وكفرتم . وتقولون خير فاختار ، وكلا فان المختار لا ينعج بطانه ، ولا يفقأ عينه ، ولا يرمى من حالق ابنه . فهل الإكراه إلا ماتراه . والإكراه مرة بالمرة ، ومرة بالدرة فليخزكم أن القرآن يفيضكم ، وأن الحديث يفيظكم ، إذا سمعتم من يضلل الله فلا هادي له ألحدتم . وإذا سمعتم زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها جحدتم . وإذا سمعتم عرضت على الجنة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت على النار حتى اتقيت حرها بيدي أنغضتم رؤوسكم ، ولويتم أعناقكم . وإن قيل عذاب القبر تطيرتم ، وإن قيل الصراط تغامزتم . وإن ذكر الميزان : قلتم من ألفرخ كفتاه . وإن ذكر الكتاب قلتم من القد دفتاه . يا أعداء الكتاب والحديث ، بم تطيرون؟ أبالله وآياته ورسوله تستهزؤن؟ إنما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث ، ثم مرقتم منها فأنتم خبث الخبيث . يا مخانيث الخوارج ، ترون رأيهم إلا القتال . وأنت يابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض . سمعت أن افترشت منهم شيطانة ، ألم ينهك الله عز وجل أن تتخذ منهم بطانة؟ ويلك ، هلا تخيرت لنطفتك ، ونظرت لعقبك؟ (١)

وخلاصة مذهب المعتزلة كما أشار إليه البديع والكتب المختلفة أنه مذهب قائم على أصول خمسة : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والقول بالمنزلة بين

---

(١) العقامة المارستانية ص ١٢٧ وما بعدها .

المنزلتين ووجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ويبدو أن المعتزلة مروا بأدوار من الضعف والقوة والجهر والخفية ، ووصل المذهب إلى القرن الرابع وقد اعتنقه كبراؤهم . فقد كان الصاحب معتزليا " وكان لهم قوة عظيمة أعاد إليهم شيئا كثيرا من مجدهم وهيبتهم . ولذلك كان نقده كارثة كبيرة انصبت على رؤسهم وخسارة جسيمة ضعضعتهم ، فبدأت أحوالهم بعده تسير من سيء إلى أسوأ " . (١)

والمعتزلة يذهبون إلى أن العبد يختار أفعاله وليس لإرادة الله دخل فيها . كما أنهم لا يأخذون بالحديث ، ذلك لأن فيه كثير اختلاف . وبناء على المنطق الذى أخذوه من اليونان حكموا عقولهم . فالعقل يتحكم فى نصوص الشرع ، ومن هنا كان إنكارهم للحديث الوارد فى المقامة . " فهم لا ينكرون شيئا من المعجزات حسيها ومعنويها ، ولا يجحدون أن الله تعالى قد يطلع نبيه صلى الله عليه وسلم على بعض غيبه . ولكن حديث زويت لى الأرض أى قبضت وتقاربت أطرافها حتى صارت بأجمعها مسرحا لطرفى فأبصرت مشارقها ومغاربها ، إذا أخذ بظاهره دل على أن الأرض تنقبض وتتدانى أطرافها وهذا مما يسهل القول بالاسراء والمعراج الجسمانيين يقظة . وجمهور المعتزلة ينكرونها ويزعمون أنها روحانية أو من الرؤيا الصالحة . كما روى عن معاوية وعائشة رضى الله عنهما . فهم إذا ذكر هذا الحديث يجحدونه أى ينكرون نسبته الى النبى صلى الله عليه وسلم حتى اذا صح يظنون فى تأويله " (٢). كما أنهم ينكرون وجود الجنة والنار الآن ، وأن عذاب القبر بآلام حسية ، وأن الصراط

---

(١) المعتزلة ـ زهدى حسن جار الله ص ٢١١ .

(٢) المقامات هامش ص ١٣٠ .

جسر حسن وذهبوا الى أنه طريق الحق والدين القويم.

وقد جرت خصومة عنيفة قبل القرن الرابع بين أهل الاعتزال والأثر (السنة) جرّت الى مشكلة خلق القرآن ، فالمعتزلة يسلمون بأنه محدث مخلوق" ويرون أن الله تعالى متكلم ولكن لا بكلام قديم بل بكلام محدث يحدثه وقت الحاجة إلى الكلام" (١)

وقد سماهم في المقامة مخانيث الخوارج " فالخوارج الذين خرجوا على علىّ بن أبى طالب ورأيهم فيه تفسيقه بتحكيمه عمرو بن العاص وأبا موسى الأشعرى فيما كان بينه وبين معاوية رضى الله عنهم من النزاع. والمعتزلة على شبه رأى الخوارج يفسقون أحد المتنازعين لا على اليقين ، ويرددون شهادتهما معا ، ولكن الخوارج من رأيهم قتال من ضللوه. أما المعتزلة فإنهم يقولون ما يقولون بين الحوائط لا يرون القتال ولا يحمدونه فهم في الخوارج مخنث كالمخانيث من الرجال" (٢).

هذه وغيرها عقائد كانوا يخالفون فيها أهل السنة. وفي حقيقة الأمر أن علماء الأثر كانوا يأخذون نصوص القرآن بظاهرها ولذلك سموا أهل الظاهر. ولقد كان وجود المعتزلة رد فعل لهم ، لأن المعتزلة يستعملون عقولهم ، ولم يعطلوها حين عظم الله شأن العقل وجعله مناط التكليف. ولقد كان من أثر تمجيد المعتزلة حرية الفكر واستخدام العقل أن قامت حركة ثقافية بلغاح ثقافي جديد

---

(١) المعتزلة ـ زهدى حسن جار الله ص ٧٧.
(٢) المقامات ـ هامش ص ١٣١.

من اليونان استخدموها ليردوا بها على أهل البدع والزنادقة والمخالفين للنصوص القرآن • وتصدوا للدفاع عن مبادئ الاسلام مسلحين بالمنطق والفلسفة •

ولم يكن المعتزلة ظاهرة فريدة فى مجتمع القرن الرابع ، فلقد كانت هناك فى كل بلد اسلامى مناظرات وصراع بين المذاهب المختلفة • يقول المقدسى عن إقليم واسط : "وبغداد غالية يفرطون فى حب معاوية وشيعة حمراء • وكنت يوما بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنوت منه فإذا هو يقول : حدثنا فلان عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله يدنى معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ، ويخلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس • فقلت له : بماذا بمحاربته عليا رضى الله عنه؟ صدق معاوية وكذبت أنت ياضال • فقال : خذوا هذا الرافضى • فأقبل الناس علىّ ، فعرفنى بعض الكبهة فكركرهم عنى " • (١)

وتصور الرسائل جانبا آخر من الحياة العقلية فى المجتمع العربى • فالبديع فى رسالته إلى الشيخ الرئيس أبى عامر فى معنى الصدق وهو ليلة الوقود عند المجوس يتصدى للرد على العجم ويقف مدافعا عن العرب • وكأن المجتمع فى ذلك الوقت فى خندق دائب بينهما انقسم له الأدباء ، فانقسمت العقول كل يعلى حزبه وأنصاره • وأرى أن الفتنة التى انبثقت خيوطها فى هذه الناحية هى وسيلة لعودة المجد الفارسى الضائع • يقول البديع : " ولاينكر فضل العرب إلا وقح وتح ، ولايجحده إلا نفل نغر ، إنما قدم الله تعالى ملك العجم ليحتج عليها ، وإنما أخر ملك العرب ليحتج بها ، وماملكت العجم حتى تواصلت ، وماملكت العرب

---

(١) أحسن التقاسيم ص ١٢٦ •

إلا حين تحاولت ... إن تهلة أثرت هذه الحرب لها أنها جمرتها لجماع أخلاق شريفة ، ونظام أحلام رزينة ، وسحاب أيام مذكورة ... إن عيد الوقود لعيد إفك ، إن شعار النار لشعار شرك ، وما أنزل الله بالصدق سلطانا ، ولا شرف نيروزا ولا مهرجانا . وإنما صب الله سيوف الحرب على فروق العجم لما كره من أديانها ، وسخط من نيرانها ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم حين مقت فعالهم " .(١)

ويبين لنا في رسالة أخرى طوائف الأمة الفكرية والاعتقادية حين يقول : " خلق الله الخيرات وجعل الدين مناطها ، وجمع المخازي ، وجعل الإلحاد رباطها ، وكل طائفة تفتخر بالله بزعمها ، وتدينه بمبلغ علمها . تقول اليهود : نحن أبناء الله وخليله ، وورثة إسرائيله ، وتدعي النصارى أنها صفوة جيله ، وحملة إنجيله ، والصابئة تفتخر بجبريله ، وتقول بميكائيله ، والمجوس على أثر من سبيله ، وأثرة من قيله ، ونحن بحمد الله حملة تنزيله ، والعلماء بتأويله " (٢) وهذه الطوائف كانت لها طقوس وسنن ، كما كان الخلاف بينها يشتجر ، ملتاعين نفسه عن طريق المناظرات والمحاورات .

وكانت الخصومات العقلية تعيش إلى جوار الخصومات الأدبية على شكل مناظرات ، قدم لنا صورة منها بديع الزمان في رسائله في مناظرته لأبي بكر الخوارزمي والتي كانت سببا لهبوب ريح الهمذاني وطوأمره .

---

(١) الرسائل ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٢) الرسائل ص ٢٨٥ .